بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة المعارج

وهي سورة مكية، تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾

يعني ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ من الكفار المنكرين للبعث، المستهزئين برسول الله ﷺ ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي: عن عذاب يخبر النبي ﷺ أنه واقع بهم!!

لمن يكون هذا العذاب؟ ومتى يكون؟

وكأنه يستعجله استهزاء، فيكون الجواب:

﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾

هذا العذاب، ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ و ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ يرده عنهم، ويحميهم منه.

لأنه واقع بهم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى﴾ صاحب ﴿ٱلْمَعَارِجِ﴾ وهي مصاعد السمٰوات؛ حيث ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ بأعمال العباد، وتلقي التكليفات، وهذا العذاب أيضًا يكون ﴿فِى يَوْمٍ﴾ أي يوم القيامة، الذي ﴿كَانَ﴾ بمعنى يكون ﴿مِقْدَارُهُۥ﴾ علىٰ الكافر ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ من شدة الأهوال.

وفي الحديث الشريف: «**... أن هذا اليوم يكون علىٰ المؤمن أخف من صلاة مكتوبة، كان يصليها في الدنيا**».

ثم يقول ربنا للحبيب ﷺ، ولكل داعية إلى الله:

﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾

أي: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ علىٰ أذاهم، وسخافة أقوالهم، وعنادهم.

إنهم ﴿يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾ استهزاءً وإنكارًا.

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ واقعًا لا محالة، لذلك: نحن نؤمن به، ونستعد له، وإن كُنَّا لا نعرف موعده بالتحديد.

هذا اليوم الذي يراه الكافرون بعيدًا، ويراه المؤمنون قريبًا، هو يوم القيامة:

﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩﴾

إنه ﴿يَوۡمَ﴾ تتبدل فيه الأحوال لرهبته، وتتغير فيه الأوضاع ﴿تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ﴾ فيه ﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾ الزيت العكر، والألوان المختلطة ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ﴾ فيه ﴿كَٱلۡعِهۡنِ﴾ أي: الصوف الهش المنفوش، المصبوغ بالألوان.

ما حال هؤلاء الذين كانوا يسألون عن العذاب؟ إنهم يتخبطون:

﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤﴾

يُفاجَؤون بهذه الأهوال، وبهذا العذاب فيُشغَلون بأنفسهم، ويبحثون عن طريق للخلاص ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا﴾ أي: قريب عن قريب؛ لانشغاله بنفسه، بالرغم من أنهم ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ﴾ يعني: يرونهم وهم كذلك في أهوالهم.

في هذا اليوم ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ﴾ الكافر ﴿لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ﴾ بكل ما يملك، حتى ولو ﴿بِبَنِيهِ﴾، ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ زوجته ﴿وَأَخِيهِ ۞ وَفَصِيلَتِهِ﴾ كل أهله وأقاربه وعائلته ﴿ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ﴾ وينتمي إليها ﴿و﴾ أكثر من هذا ﴿مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ من البشر وغيرهم، ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ هذا الفِداءُ من هذا العذاب.

obeikandl.com

ولكن الجواب علىٰ أمنيته هذه يكون:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

أي: ﴿كَلَّآ﴾ لا فداء في هذا اليوم، ﴿إِنَّهَا﴾ نار ﴿لَظَىٰ﴾ التي كانوا ينكرونها وهي الآن ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ تحرق مكارم وجهه وأطرافه وكل شيء فيه.

وهي ﴿تَدْعُوا۟﴾ تحرق كل ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحق ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الإيمان والطاعة، ﴿وَجَمَعَ﴾ المال ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾ وبخل به فلم يؤد حق الله فيه لأصحابه.

ثم يحدثنا ربنا عز وجل عن الإنسان وطبيعته بصفة عامة، فيقول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿إِنَّ﴾ طبيعة الإنسانِ أنه ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ يصاب بالفزع و الجزع سريعًا.

لذلك تراه: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۞ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ فهم علىٰ خلاف ذلك.

وهنا: يصف الله سبحانه المصلِّين بقوله:

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾

هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات: هم الذين لا يُصابون بالهلع والجزع، حيث يتحلَّون بالصبر الجميل، والخلق الحسن.

ماذا لهم؟ يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ومع وضوح هذه الصفات للمصلين، ومكارم الأخلاق التي يتحلَّون بها، والجزاء الحسن الذي يوعدون به من رب العالمين، فإن الكافرين يعاندون، ولا يهتدون، يقول ربنا سبحانه:

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾

﴿فَمَالِ﴾ فأي شيء جعل ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ﴾ عندك ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين في البعد عنك، والحرب لك، كما أنهم متفرقون ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ أي في كل جهة ﴿عِزِينَ﴾ فرقًا وجماعات.

يقولون: لئن أُدخِل هؤلاء المؤمنون الجنة لندخلنها قبلهم، وعلىٰ هذا ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾؟

ويرد عليهم ربنا قائلًا: ﴿كَلَّآ﴾ سيكون البعث الذي ينكرونه، ولن يدخلوا الجنة، التي يستهزئون بها، بل سيدخلون جهنم، إنهم أنكروا قدرتنا، وتجاوزوا حدودهم؛ حيث ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ وهو الماء المهين، ولكنّهم تناسوا ذلك.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ علىٰ بعثهم وحسابهم، وعذابهم، بل ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾ الآن ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ في طاعة الله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: بعاجزين عن ذلك، فلم إذن: لا يؤمنون.؟ على أية حال لقد بلَّغت وأنذرت.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي: فدعهم ﴿يَخُوضُواْ﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْعَبُواْ﴾ في دنياهم، وذلك ﴿حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ العذاب فيه، وعندها سيعرفون سوء مصيرهم.

وهذا اليوم يكون ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ وهي القبور ﴿سِرَاعًا﴾ لا تباطؤ فيه ولا تأخير عن إجابة الداعي، يسيرون ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ هدف واضح ﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون.

﴿خَـٰشِعَةً﴾ ذليلة ﴿أَبْصَـٰرُهُمْ﴾ لا يرفعونها، ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ يغشاهم هوان وخذلان، بعد استكبارهم في الدنيا، ويقال لهم تحسيرًا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ به، ولا يؤمنون، ولا يستعدون له، فليذوقوا العذاب فيه.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة نوح

وهي سورة مكية، تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١﴾

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾ عليه السلام؛ رحمة منَّا ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ قائلين له: ﴿أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ﴾ وخوِّفهم من غضب الله عليهم، بسبب عبادتهم للأصنام، وذلك ليؤمنوا ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ وهو عذاب الطوفان في الدنيا، وعذاب النار في الآخرة.

وبلَّغ نوح عليه السلام هذه الرسالة:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤﴾

وظل يدعوهم عليه السلام، ويدعوهم، ويدعوهم.. حتى بلغت المدة التي ظل يدعوهم فيها إلىٰ الإيمان، كما يقول المولىٰ: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت: ١٤].

ومع ذلك: لم يستجيبوا للدعوة، ولم يؤمنوا بربهم.

وبعد ذلك توجه إلىٰ ربه:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦﴾

أي: دعوتهم للإيمان بك، فلم يزدهم ذلك إلَّا عنادًا، وفرارًا مني، وبعدًا عني.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾

وواصل قائلًا لمَا كان يرغبهم به في الإيمان:

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾

ثم بيَّن أنه كان يذكِّرهم بقدرة الله في خلقهم، حيث قال لهم:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾

أي: ما لكم لا تؤمنون بالله الذي خلقكم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم.. إلىٰ تمام خلق الإنسان في هذه الصورة الحسنة؟ أي: آمنوا به سبحانه.

كذلك: ثم يبيِّن أنه كان يذكِّرهم بقدرة الله في الأجرام العلوية، فقال لهم:

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾

أي آمنوا به سبحانه الذي سخر لكم هذه المخلوقات.

وبعدها يبيِّن أنه كان يذكِّرهم بخلقهم وبعثهم، حيث قال لهم:

﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾

نعم، هو سبحانه الذي ﴿أَنبَتَكُم﴾ خلقكم ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ بخلق أبيكم آدم، وبخلقكم أنتم بالغذاء منها.

ثم ﴿يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ في الأرض للدود والتراب في القبر، فإمّا روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر نار جهنم، ﴿و﴾ هو الذي ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ ويبعثكم ﴿إِخْرَاجًا﴾ للعرض والحساب والجزاء.

أي: آمنوا به سبحانه الذي أوجدكم من الأرض، ثم يعيدكم فيها، ثم يخرجكم منها.

ثم يبيِّن أنه كان يذكِّرهم بقدرة الله في الأرض التي يعيشون عليها، فقال لهم:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾

فالله سبحانه هو الذي ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۞ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ أي مبسوطة؛ لتسيروا في طرقها،وجبالها، ووديانها، وبحارها الواسعة، كيف شئتم.

ثم حكىٰ حالهم معه لربه:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾

أي: أنهم عصوني، ولم يؤمنوا، وآذوني، وقالوا لبعضهم البعض: لا تتركوا عبادة آلهتكم، وذكر منها خمسة وهي: وَداً، وسُواعاً، وَيغوثَ، وَيعوقَ، ونَسْراً.

ثم قال: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟﴾ غيرهم ﴿كَثِيرًا﴾، وبهذا فقد ظلموا، ويا رب ﴿لَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ فوق ضلالهم.

وكانت النتيجة:

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾

أي بسبب ﴿خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾ هذه، وكفرهم ﴿أُغْرِقُوا۟﴾ بالطوفان، فماتوا ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ في قبورهم، وضاعوا ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾.

وكان هذا العذاب لهم، بعد دعاء نوح عليه السلام حسب قوله تعالىٰ:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي: لا تترك على وجه الأرض منهم أحداً ولا ديَّارًا، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟

عِبَادَكَ﴾ أي: إنك إن أَبقيتَ منهم أحدًا أضلوا عبادك، أي: الذين تخلقهم بعدهم ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ أي: لا يأتي من أصلابهم إلَّا كل فاجر وكافر، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلَّا خمسين عامًا.

ولمَّا دعا على الكفار أعقبه بالدعاء للمؤمنين، فقال:

﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾

بدأ بنفسه ثم بأبويه، ثم عمَّم لجميع المؤمنين والمؤمنات؛ ليكون ذلك أبلغ وأجمع ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا﴾ أي: ولا تزد يا رب مَن جَحَدَ بآياتك وكذَّب رسلك إلَّا هلاكًا وخسارًا في الدنيا والآخرة.

* * *

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الجن

سورة الجن مكية، وهي تبدأ بقوله عز وجل:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لقومك إنه ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من ربي ﴿أَنَّهُ﴾ قد استمع إلى القرآن، وأنا أتلوه ﴿نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ وعددهم سبعة تقريبًا ـ وذلك بمكة قرب الحرم ـ ﴿فَقَالُوا﴾ لقومهم ما يلي:

أولًا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ في معانيه وفصاحته، وهو ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ والفلاح، لذلك: ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ وبمن نزل عليه، وبمن أنزله، وهو الله الواحد الأحد ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا﴾ الذي أنزله ﴿أَحَدًا﴾ أبدًا.

خاصة: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ وعظم شأنه، وجل جلاله ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾

أي: ﴿و﴾ قد عرفنا الآن ﴿أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ إبليس ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى: كلامًا ﴿شَطَطًا﴾ كاذبًا جائراً، بالغ البطلان.

وذلك: في الوقت الذي ﴿ظَنَنَّآ﴾ فيه ﴿أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ حتىٰ تبيَّن لنا كذبهم بما سمعناه.

ثانياً: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾

في الوقت ذاته ﴿كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ﴾ ويستجيرون، ويستنجدون ﴿بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ﴾ بهذا الفعل ﴿رَهَقًا﴾ غرورًا وكِبراً وطغيانًا.

﴿وَأَنَّهُمْ﴾ أي: رجال الإنس ظنُّوا كما ظننتم أيها الجن ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ بعد الموت، وهذا: خطأ آخر قد اكتشفناه.

ثالثًا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ أي: حاولنا الاستماع إلىٰ كلام أهلها ﴿فَوَجَدْنَٰهَا﴾ قد ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ تمنعنا من ذلك الذي كُنَّا نعرفه قبلًا.

خاصة: ﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾ قبل تنزيل هذا القرآن ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ ونصل إلىٰ ما نريد، علىٰ أية حال ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ﴾ أي: يحاول ذلك ﴿يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ في انتظاره؛ ليحرقه.

رابعًا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١﴾

أي: ﴿وَأَنَّا﴾ بعد إيماننا ﴿لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ﴾ يعني: عذاب ﴿أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذا لم يؤمنوا ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ حيث يهديهم للإيمان، فلا يُعذَّبون.

خاصة: ﴿وَأَنَّا﴾ قد عرفنا بعد سماعنا للقرآن أنَّ ﴿مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ المتقون ﴿وَمِنَّا

دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير صالحين، بحيث ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ فرقًا مختلفة، لذلك هيا بنا جميعًا نؤمن بالله الإله الواحد.

خامسًا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾

وقد عرفنا بعد إيماننا: أننا في قبضة الله، ولن نفر من قضائه، بل لن نَفِرَّ من عذابه إذا لم نؤمن.

سادساً: قالوا لهم صراحة وبكل فخر:

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾

أي: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ وهو القرآن ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ فورًا، ثم شجعوهم على الإيمان بقولهم: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ معنا ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾ نقصًا لثوابه ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ ولا مذلة.

سابعًا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾

أي: ﴿وَأَنَّا﴾ سيكون ﴿مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ المؤمنون بالله ورسوله، المهتدون بهذا القرآن، ﴿و﴾ كذلك: سيكون ﴿مِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ الكافرون بهذا الدين المحرومون من هدي القرآن، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ واختاروا طريق النجاة.

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ فقد ضلوا ﴿فَكَانُوا۟﴾ بذلك ﴿لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

وهذا الكلام الذي ورد على لسان فريق الجن لأقوامهم قاله النبي ﷺ لقومه، كما أمره ربه، بـ: ﴿قُلْ﴾ [الجن: ١]، ثم أمره ربه سبحانه أن يقول لهم كذلك:

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾

يعني وقل للناس كلهم عن هؤلاء القاسطين من الجن والإنس الذين ضلُّوا وكفروا بالله، قد أوحي إليَّ أنهم: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ الصحيحة، وهي الإسلام ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ يعني: لوسعنا عليهم في الرزق.

وذلك ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: نختبرهم، هل يشكرون، أو يكفرون!! ﴿و﴾ في هذه الحالة ﴿مَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ ولا يؤمن ﴿يَسْلُكْهُ﴾ يدخله ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: عذابًا شاقًّا.

وقد أوحي إليَّ قوله تعالىٰ:

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾

أي: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ هي بيوته سبحانه التي يُعبد فيها بالصلاة، لذلك ﴿فَلَا تَدْعُوا۟﴾ وتعبدوا فيها ﴿مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ غيره سبحانه، بل وحِّدوه عز وجل.

وبهذا: انتهى حديث الجن، وما تلاه.

يخبر ربنا عن أنَّ النبي ﷺ صار يمارس عبادته، ويدعو إلىٰ الله، يقول الحق سبحانه:

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ محمد رسول الله ﴿يَدْعُوهُ﴾ يدعو ربه، ويدعو إلىٰ توحيده ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ﴾ طوائف الجن والإنس ﴿عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ متزاحمين؛ رغبة في إيقاف دعوته، وإطفاء نور الله، بالإيذاء، والتكذيب.

ولكن، ﴿يَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢] وينشر دينه.

يقول ربنا للحبيب ﷺ:

أولًا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لكفار قريش وللدنيا كلها ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى﴾ وحده، وأعبده وحده ﴿وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ أبدًا ﴿أَحَدًا﴾ لذلك: آمنوا به ووحِّدوه سبحانه.

ثانيًا: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنِّى﴾ أبلِّغكم فقط، وأنا بشر مثلكم، ﴿لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ﴾ شيئاً ولا ﴿ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾.

ثالثًا: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهم وللدنيا كلها ﴿إِنِّى لَن يُجِيرَنِى﴾ يحميني ﴿مِّنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾، ﴿و﴾ كذلك ﴿لَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ ملجأ، أهرب إليه ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ﴾ يعني: إلَّا أن أبلغ رسالة الله، وأدعو إلىٰ توحيده سبحانه، ﴿و﴾ لذلك: آمنوا به، ووحدوه سبحانه، حيث إن ﴿مَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ جزاءً عادلًا، ويكونون ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ من هذا العذاب! ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينها ﴿مَنْ﴾ منَّا ﴿أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾؟ أهم أم المؤمنون؟

وكأنهم سألوا مستهزئين متى يكون هذا العذاب؟

فقال له ربه **في الأمر رابعاً:**

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم وللدنيا كلها ﴿إِنْ أَدْرِيٓ﴾ ما أدري ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ به من العذاب ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ بعيدًا.

فهو وحده سبحانه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾، ووقت هذا العذاب: غيب، ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ الله ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ من خلقه.

﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فإنه يطلعه علىٰ بعض الغيب؛ ليكون معجزة له، وليقتنع الناس برسالته، فيؤمنوا بدعوته، ومع ذلك ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿يَسْلُكُ﴾ يجعل ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ ملائكة ﴿رَصَدًا﴾ له، يحفظونه من الشياطين ومن الناس، حتى يبلِّغ رسالة ربه.

وذلك ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ الناس ﴿أَن﴾ الرسل ﴿قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ وأدُّوا أمانتهم في الدعوة إلىٰ الله، هذا ﴿و﴾ قد ﴿أَحَاطَ﴾ الله سبحانه ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: الناس من إيمان أو كفر، وخلافه، ﴿و﴾ أيضًا ﴿أَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ﴾ من أعمالهم ﴿عَدَدًا﴾ في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلَّا أحصاها.

وسيجازيهم سبحانه علىٰ الخير منها خيرًا، وعلىٰ الشر منها بمثله.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المزمل

سورة مكية، وهي تبدأ بقول الله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾

نداء من المولىٰ للحبيب ﷺ، يعقبه **تسعة تكاليف:**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ أي: المتزمل المتلفف بثيابه، حين نزول الوحي إليه؛ هيبة له، وخوفًا منه. **وهذه التكاليف هي:**

التكليف الأول: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ﴾ أي: من النصف ﴿قَلِيلًا ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي: علىٰ النصف، وقد كان ذلك: واجبًا عليه ﷺ وحده.

التكليف الثاني: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ حيث ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ﴾ فيه ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ وهي التكاليف الشاقة من الأوامر والنواهي.

يا محمد: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: القيام والترتيل للقرآن فيه، ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ أصعب من صلاة النهار، والتلاوة فيه.

﴿و﴾ لكنها ﴿أَقْوَمُ قِيلًا﴾ أثبت في القراءة، لهدوء الأصوات، وسكون الحركات.

وفي الوقت ذاته: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ فراغًا كبيرًا، لأعمالك وراحاتك.

التكليف الثالث: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ في كل وقت وحين بالصلاة، وتلاوة القرآن، ودراسة العلم.. الخ.

التكليف الرابع: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي: انقطع لعبادته، وأخلص له فيها، واعلم أنه سبحانه ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لذلك:

التكليف الخامس: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ لك توكَّل عليه، وفوِّض كل أمرك إليه.

التكليف السادس: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ كذبًا وعنادًا عليَّ وعليك.

التكليف السابع: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ حسناً لا عتاب فيه ولا غضب ـ وكان هذا قبل الأمر بقتال الكفار ـ.

التكليف الثامن: ﴿وَذَرْنِي﴾ اتركني ﴿وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ الكافرين ﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ أصحاب الترف، والتنعيم بملذات الدنيا.

التكليف التاسع: ﴿وَمَهِّلْهُمْ﴾ زمنا ﴿قَلِيلًا﴾ يلاقون بعده جزاءهم في الدنيا.

وقد قُتِل زعماؤهم بالفعل في يوم بدر، وحقًّا، فإنَّ لكل ظالم نهاية، هذا في الدنيا.

أما في الآخرة، فيقول الله تعالى:

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ﴾ عندنا لهؤلاء الظالمين ﴿أَنكَالًا﴾ قيودًا ثقالًا، ﴿وَجَحِيمًا﴾ ناراً محرقة، ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ يلتصق بالحلق، فلا يخرج ولا يدخل، ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ شديدًا غاية الشدة، مؤلمًا غاية الألم، وهذا العذاب يكون في الآخرة:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾

أي: ﴿يَوْمَ﴾ القيامة حين ﴿تَرْجُفُ﴾ تتزلزل ﴿ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ زلزلة شديدة، ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ ساعتئذ ﴿كَثِيبًا﴾ رملًا ﴿مَّهِيلًا﴾ سائلًا كالماء.

ثم يُهدِّد الله كفار مكة، وهو في الوقت يهدد كفار الدنيا كلها، فيقول الحق جل وعلا:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾

يعني يا أهل مكة ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ وإلىٰ الدنيا كلها ﴿رَسُولًا﴾ هو محمد ﷺ ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة، وذلك ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ﴾ موسى عليه السلام ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ يدعوه إلىٰ الإيمان وعبادة الله، ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾!! ﴿فَـ﴾ كانت عاقبته: أن ﴿أَخَذْنَٰهُ﴾ بعذابنا ﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾ شديدًا غليظًا.

وعلىٰ هذا ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ غضب الله وعذابه ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ يا أهل الدنيا، ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ من شدة عذابه وأهواله؟

في هذا اليوم: تكون ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ أي: منفطرة متشققة من هول هذا العذاب، و ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ أي: وعد الله بهذا العذاب للكافرين ﴿مَفْعُولًا﴾ أي: واقعاً بهم لا محالة.

يا أهل الدنيا كلها:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ السورة وما فيها من تكاليف، وآيات تخويف ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ للخلق ينتفعون بها ﴿فَمَن شَآءَ﴾ اتعظ، و ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ﴾ مرضاة ﴿رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ طريقًا إلىٰ تقوىٰ الله وخشيته.

ثم يخفف الله عز وجل عن حبيبه ﷺ، وأصحابه في بعض هذه الأحكام والتكاليف فيقول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ

وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

المعنى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ﴾ أقل ﴿مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ﴾ طاعة لله، وكذلك طائفة من المؤمنين الذين معك يقتدون بك، فهؤلاء: كان الواحد منهم يقوم الليل كله، حتىٰ تورمت أقدامهم، وذلك: لمدة عام أو أكثر، ولهذا، خفف الله عنهم قائلًا: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي: لن تطيقوا قيام الليل بهذا الشكل إلَّا بصعوبة ومشقة!!

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ وخفف عنكم، وأسقط فريضة قيام الليل، وجعلها ندبًا، وتطوعًا، ﴿فَٱقْرَءُوا۟﴾ إذن ﴿مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾ أي: قوموا من الليل ما تيسر لكم، وصلُّوا فيه ما شئتم من غير تحديد، وذلك التيسير بسبب أنه: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم﴾ أصناف وهم:

أولًا: ﴿مَّرْضَىٰ﴾ يشق عليهم قيام الليل.

ثانيًا: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يسافرون ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ من رزقه بالتجارة، وطلب العلم،وغير ذلك، وهؤلاء: يشق عليهم قيام الليل.

ثالثًا: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ﴾ فيشق عليهم قيام الليل.

من أجل هؤلاء، نقول للجميع: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ﴾ لكم ﴿مِنْهُ﴾ أي من القرآن في الصلاة، ـ وبهذا تغير حكم قيام الليل من الفريضة إلىٰ الندب، ﴿و﴾ كذلك: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بالإنفاق ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾، واعلموا أنه ﴿مَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ﴾ لأن الدنيا فانية والآخرة باقية، وما عند الله خيرٌ للأبرار، ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾ من السيئات والتقصير في الحسنات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ عظيم المغفرة، واسع الرحمة بالمؤمنين.

* * *